توبة الآبق

مترجمة بتصرف بقلم الاديب جوزيف وحيد غريب (تتمة)

انتهى الملازم من تنقد الاسماء ثم صرّح بصوت حافل تردّد صداه بين الامواج: والآن فالانتباه !

وقفة جنود ! انتظام ! الوسلحة على الاكتاف ! الى الامام !

وحينئذٍ كنت ترى الجنود تسير بعُجب وافتخار بخطوات منتظمة نحو البحر والملازمين والقوّاد يُلقون الحماس في الصدور بما كانوا يبدونهُ من سيماء الشجاعة ويوجّهون اليهم من القاب التفخيم

كانت المراكب الحربية تطفو فوق المياه وضمنها تعجُّ الجيوش كالامواج بينما كانت الموسيقى العسكرية تصدح بالحان شجية ومحزنة معاً فتقبضُ قلوباً في صدور وتستنزل دموعاً من عيون

حينئذٍ أرسلت المراكب نحو الفضاء غيوماً كثيفة من الدخان حجبت نور الشمس. ثم تموّجت الاعلام في العلاء بينما كانت المناديل تتراوح بين ايدي المودّعين فوق اليابسة وجنود فرنسة الابطال يشقّون عباب المياه . . نحو الصين ! الى حيثما يستدعيهم مجد فرنسة لقمع شوكة الثوّار المعروفين بالرايات السود الذين كانوا يرتكبون كل انواع الشرور على حدود تونكين الفرنسوية . . .

كادت أنجُمُ تغيب عن العيان بينما كانت السفن تمخر غمر البحار. وهناك من داخل المراكب كانت تتصاعد نحو السماء الوف من اصوات الحماس صادرة من اعماق قلوب تهتفُ بسرور :

الى الحرب ! الى الحرب ! النصر يفترُّ لنا عن ثغره البسّام !

في تلك الساعة كان الملازم روجيه يحلم بالارتقاء الى رتبة قائد تام الصحة ولويس

برس بالقتال بشجاعة والاخت ماري مادلين الراهبة الممرضة بتخليص نفوس وشفاء اجسام الجرحى الساقطين ..

كان الجميع يتوقون للنصر ولم يكن ليشبع الموت مدخل بين اولئك الابطال !

٥

كانت الفرقة الاجنبية تُقاتل في مقدّمة الجيوش وكان النصر حليفها في كل مكان . وبعد مواقع عنيفة فني فيها كثير من حَمَلة ده مارسلّي زاح الثوار عن مراكزهم والجأوا الى الفرار وهكذا اصبحت الحدود الترنسوية لوقتٍ ما في مأمن من الطوارئ . فاستُدعي الجيش باجمعه اذ لم يعُد له من لزوم هناك . وتُركت بضع فصائل من الجنود فقط تحرس الحدود وتقيم في مراكز فاسدة الهواء

ولم يمضِ الا زمن وجيز حتى اعاد الثوّار الكرّة ولكنّهم كانوا هذه المرّة اكثر عددًا مما مضى . وكان الكولونيل ده مارسلّي وجنوده في مدخل الصين في دونغ دُنغ التي اشتهرت بحملة نِكريه سنة ١٨٨٥ في منطقة تحوط بها الثوّار . اما جيشه الصغير الذي اودت الاوبئة بحياة جزء عظيم من عدده وذهبت نيران المدافع بثلث من أبطاله فكان باقياً منه يومئذٍ نحو المئة من الرجال .. وقد تُرك قائدهم لييأسوا بان الدولة لم تهملهم وشأنهم

ظلّت تلك البقايا معسكرة نحو شهرين من الزمان في دونغ دنغ في اكواخ حقيرة يفترشون الارض المتوحلة ويلتحفون السماء . وبعد ان تكبّدوا من المرانر الوانًا تارةً يهجمون وتارةً يدافعون فشت بينهم اخيرًا الحمّى الصفراء فلم تُبقِ ولم تذَر . اما المراكز البعيدة التي مات جنودها فتُركت وشأنها اذ لم يعد يوجد من يُرسَل اليها

وكان من تلك المراكز واحد بقي فيه عشرة رجال لا غير . ومنهم الجندي لويس برس والملازم روجير ابنه وراهبة ممرضة الاخت ماري مادلين التي كانت تنتمي الى رهبنة الرسالات الافريقية وقد تطوّعت باذن رؤسائها سنة ١٨٩٢ لخدمة الفرقة الاجنبية فأُرسلت الى بليداه في سويسرة مركز القيادة يومئذٍ مزوّدة بشهادة من رئيستها سُيّت قراءتُها للكولونيل ده مارسلّي في ذلك اليوم انشغالَ بالٍ واهتماماً زائدين . فبينما كان الكولونيل يومئذٍ في مركزه يتفقّد شؤون جنوده وصلت اليه تلك الراهبة وسلّمته شهادتها فقرأ فيها ما يلي :

«مادلين برس» اسمها في الرهبنة الاخت ماري مادلين طلبت اشدّ المراكز خطرًا في الفرقة الاجنبية فأُعطيَتْه . وهي لا تخشى الاتعاب ولا غياب الاخطار ويُمكن الاتكال عليها . قدّمت ذاتها ضحيّةً للتكفير عن ذنب ابٍ لها آبق من اخيتس في حرب السبعين . عمرُها ٣٢ سنة . اصلها من طروى في شمپانية

شعر الكولونيل حينئذٍ باقشعرار سرى في عروقه عندما قرأ تلك الشهادة . وقد غلب على ظنّهِ لاوّل لحظة ان الراهبة ابنة صديقهِ لويس الآبق ولكنّهُ لم يستطع ان يجزم بصحة الامر لانّ لويس لم يكن اخبره قط ان له ابنةً ما . فالقى على الراهبة عدّة اسئلة لعلّه يتمكّن من معرفة الحقيقة لكنّه لم يستطع لان الاخت ماري مادلين لم تكن تعرفُ شيئاً عن ابيها واخيها . ولما الحّ عليها بالسؤال قالت لهُ : «ارجو من سيدي الكولونيل ان يغيّر الموضوع . فطالما وددت ان اسبرَ غور هذا السر الذي يكدّر حياتي لكني لم اجنِ غير الحزن والتنوط وعليهِ عدتُ نذرتُ بان لا افكر فيهِ الّا بأمرٍ او باذن رئيساتي وهكذا عاد السلام الى نفسي فلا اريد ان افقده ثانية» . فاحترمَ الكولونيل عواطفها واكتفى يومئذٍ بتطمين نفسهِ بان الصدفة تكشف هذا السرّ الغامض يوماً ما . وفي المساء عينهِ كتب الى طروى ليستطلع جليّة الامر

٦

عسكر اولئك الابطال الثلاثة عشر في ذلك اليوم عند نبع «كوا . ترا . هو» . وقد نصبوا مركزًا من الاخشاب رفعوه عن سطح الوحول ببضع خشبات من الخيزران على علو قامة الانسان . ولم يكن لا سقفٌ ولا حواجز ولا حيطان . واقاموا هناك ينتظرون موتاً ام فرَجاً . وكانوا في وسط النهار ينزلون الى الارض فيتفقّدون الجهات وعند المساء يلجأون اليه ليقضوا بضع ساعات من الراحة . ولكن اين الراحة لمن كان الآن شبحُ الموت متصباً بين عينيه !

كان المحلّ قفرًا يابساً وكان مركبٌ صغير يخرج من «لنغ سون» كلّ اسبوع فيأتي اولئك الساكين بشيءٍ من القوت ويأخذ ما لديهم من جثث الاموات

ففي آخر مرّة القى ذلك الركب مراسيه جذاء مركز «كواتراهو» كان الملازم وابوه فقط من بين الجنود يستطيعان الانتصاب على اقدامهما . فطلب الملازم من القبطان ان يسأل الكولونيل بتجنيبهم من تلك الجهة مهما كلّف الامر لانه عاد من المحال الثبات اكثر من ذلك . فقد كان جنوده بالرغم من مرضهم يتناوبون ساعات الحفر

ذهب المركب وبقي اولئك المنهوكون ينتظرون على حرّ من الجمر. فانقضى اليوم بعد اليوم وما من نجدة اتتهم لا من البرّ ولا على سطح المياه. فاخذوا يتأهبون للموت اخيرًا في ذات يوم وقف فارس عند مدخل حصنهم فجاء روجير لمقابلته فسأله: كم عندكم من المرضى وكم من الاصحاء القادرين على الثبات؟ . فاجاب الملازم: مرضانا ثمة واصحاؤنا اثنان ولدينا راهبة ممرّضة. فالبدار البدار أسرعوا فخذونا من هنا وإمّا ان نموت. فاجاب الرسول: انتظروا ثمانية ايام اخرى والفرج يفتح لكم ابوابه

— ثمانية ايام؟ يا لله! وهل في ثمانية ايام يبقى منّا أحد؟

— ولكن ما العمل وجنود دونغ دنغ مثلكم. لما انت فاوصاني الكولونيل ان اقول لك هكذا: ولئن بقيتم رجلين تستطيعان الانتصاب على الاقدام فهذا كاف. فاثبتوا فقط وعن قريب نَصِلكم بالمدَد فنأخذكم من هنا احياء ام امواتاً . .

وكان الجنود المرضى مستندين حينئذٍ الى ايديهم ينصتون الى قول الرسول وما كاد ينهي كلامه حتى تصاعدت من افئدتهم زفرات ألم وسقطوا الواحد بعد الآخر فوق الحشيش اليابس لا يَئِنّون لشيء . فكانت المرضة المسكينة تعتني بالجميع . فاسندت رؤوسهم الى اكياسهم واتتهم بشروب قوي اعاد اليهم الروح لمدّة ما

أمّا الملازم روجير فردّ على الرسول بسلام عسكري واجاب: « حسنًا فلنعرف اذًا كيف يجب ان نموت!»

فاجاب الرسول: كلّا لا يجب ان تموتوا بل الكولونيل يقول انه يجب ان تحيوا. نعم يجب ان تحيوا لاجل شرف فرنسة. ولئن لن يدع مركز كواترلمو وشأنهُ طالما هو في قيد الحياة . ولئن قُتلتم انتم فسيدافع هو بنفسه عن هذا المركز حتى يلقى النصر ام الحِمام. أمّا غايته القصوى فهي ان تبقوا احياء . . . هذا والكولونيل يبلّغ كلًّا منكم اخلص تحيّاته ويعدكم بجائزة. أوَ ما أنتَ الملازم روجير؟

— نعم

— وهذا هو ابوك الجندي لويس؟

— نعم

— فاين هي الاخت ماري مادلين . فانّ معي رسالة اوصاني الكولونيل ان اقرأها على مسامع كل الثلاثة منكم.

— الراهبة هي فوق تعتني بالجرحى . اتريد ان اوعز اليها بالنزول ؟

— اريـد فقط ان تصغي اليَّ

فمدّت الراهبة رأسها نحوه من اعلى الرابية الخشبية . فقال لهـا : «يا اختي يرغب الكولونيل اليكِ ان تصلي في هذا الاسبوع اكثر من العادة لاجل ابيـكِ واخيك المجهولين . هذا ولـدى الكولونيل اخبارٌ مبهجة عن عائلتكِ يُعلمكِ بها بعد ثمانية ايام اذا حفظتْهُ صلواتُك في قيد الحياة

«اما الجندي لويس فامرني الكولونيل ان اسلّمهُ هذه الامانة واقرأ لهُ هذه الاسطر الاربعة من الرسالة » . ونشر الرجـل علماً مخرقاً لم يكد يراهُ لويس حتى سقط على ركبتيهِ فضمّتهُ الى صدره وقبّله باحترام . وكان ذلك علَمَ بورباكي نفسه الذي ارجعه لويس للكولونيل يوم كتب له الرسالة من ستروغ . وكانت في تلـك البرهة تنظر عيون الجميع اليه فقرأ الرسول من مكتوب الكولونيل ما يأتي :

صديقي انا مُرجع اليك رأيتي فلتطو فوق مركز كواتراهو . دافع عنها وخلّصها . . اياك ان تدَعها في يد العدوّ طمعاً في حياةٍ اهنأ ! الثبات ثمانية ايام فقط ! . .

ثمّ امتطى الرسول جواده ودار بوجهه للرحيل لكنهُ رجع فوراً نحو الملازم فقال له : لقد نسيت ان اقرأ لك بقية الرسالة

فالكولونيل يقول لك بأنك يوم وصوله الى هنا ستعرف اسمك الحقيقي ، واسم ابيك وعائلتك ويُبشرك منذ الان بانك ابنٌ من عائلة ابطال ومن والدٍ يفتخر بان يحييهُ التحية العسكرية قبل ان يموت . ففي ثمانية ايام تعلم الباقي ، والان فالوداع ! . . .

بعد دقائق قليلة كان علَم جيش بورباكي يتموّج في الفضاء فوق مركز كواتراهو وجنديٌ طاعن في السن يحييهِ والدموع ملء عينيهِ وملازم ينظر اليه بافتخار بينما كانت راهبة راكعة بالقرب من الصاري تتلو سُبحتها وتسعة من الجنود الجرحى يؤدّون نحوه سواعدهم ويهتفون

لنعش ! لنعش ! ولتحيى فرنسة

٧

مرّت ثلاثة ايام ! هل من شيءٍ جديد ؟

في المساء الاوّل حمل لويس وروجيه جندياً وكان على آخر رمق لاتستطيع ركبتاه

على حمله فاجلساه على صخرة هناك واوصياه بالسَّهَر اذ عليه تتوقّف حياة بقية رفاقه واوعزا اليه بان يُطلق عيارًا ناريًا فقط اذا ما رأى طلائع من الثوّار ليُسلّحوا مرضاهم ويحاربوا قدر المستطاع

ثبت الجندي في مركزه حتى نصف الليل . ولم يكد لويس وروجير يسمعان طَلقتهُ النارية حتى اسرعا لمساعدته فوجدا الثائرين يحوطون به وقد أُصيب برصاصتين . فقاتل الاثنان قتال السباع حتى أجليا العدوّ عن النقطة ورجعا ليفتضا عيني الباسل الاول

دفناهُ عند الصبح لدى رابيتهم وفي المساء الثاني تطوّع واحد آخر من الجرحى ليقضي ساعات الحَفر . فلم يمضِ الجميع الاول من الليل حتى سُمعت طلقته النارية فردًّا على اشارته باصوات بنادقهما واسرعا الى مساعدته . ولكنَّ الباسل الثاني كان يتضرّج بدمائهِ لا روح فيه وكان الثوّار يتقدّمون نحو المركز . فاخذ كل من الجنود سلاحه وتأهبوا لاطلاق النار . وكانت الممرّضة تعدو من الواحد الى الآخر فتسندُ هذا وتضمّد جرح ذاك وتسقي الآخر منعشاً وكان مثلها الصالح يلقي الحماس في قلوب الجميع ويحبّب اليهم الاستقتال . فأصلوا العدو نيرانًا حامية مع ضعف ايديهم فردّوهم ايضاً على اعقابهم خاسرين . ومن ينكر ان الفضل عائد الى ذلك البطل الذي انذرهم قبل حلول الخطر فات شهيد الواجب !

في صباح اليوم الثالث كان روجير في حيرة ولوتباك ظليين . سبعة جنود يحتاجون الى من يحرّك لهم ايديهم وهو ولويه وحدهما يستطيعان الانتصاب على اقدامهما فمن يحفر المركز في تلك الليلة ولديهم ستة ليالٍ اخرى . فانتصب لويس وقال لابيهِ بانه سوف يقوم بالحراسة فاجابه هذا : كلّا ذلك محال فمن يدافع عن العلم وعن هولاء الجرحى ومن يؤهبهم لاطلاق النار . وفضلًا عن ذلك فيجب ان تبقى انت عائشاً مدة ستة ايام فلا تُقتل قبل ان تعرف ما هو سرُّ الكولونيل

فقاطعه لويس قائلًا : ولدي روجير اترك الحبَّ البنوي جانباً وانظر الى ما يقتضيهِ واجبك العسكري فيجب ان اقوم انا بالحراسة هذه الليلة وانت تقود حركات الجنود في القتال . وبينما هما كذلك هتف احد الجنود نحو الملازم فأسرع اليه ظانًّا انه في حاجة الى مساعدة فتوسّل اليه الجندي بحق شرفه العسكري ولمجد فرنسة ان يدعه

يُقضي هو نفسه خفيراً في تلك الليلة. فضحك روجير وقال له: «ولكنَّك يا عزيزي لا تستطيع الانتصاب على قدميك. فاجاب: «ولكن لا بأس فليس غيري بين الجنود مَن يمكنه ان يطلق عياراً نارياً.. فاربطوني انتم الى شجرةٍ ودعوني اقوم بوظيفتي ولئن متُّ فاكون ضحية الواجب!...»

لم يُرد روجير ان يسمح بذلك في اوّل الامر لكنَّهُ لما شاهد من لجاجة الجندي قال له: ليكن لك ما تشاء.

وما كادت الشمس تميل نحو الغروب حتى كنت ترى الملازم وأباهُ يحملان جندياً ضعيف الجسم شاحب اللون غائر العينين مجوَّف الخدَّين فيصافح كلًّا من ارفاقه الجنود وقد جاءا به الى امام شجرة فشدَّا وثاقه وسلَّماه سلاحهُ بينما كانت الممرضة تضع في عنقه سبحةً وتوصيه بالالتجاء الى قلب يسوع الاقدس ووالدته المجيدة. ثم ركعت امام قدميه تبكي وتُصلّي. وبحقٍّ فعلت. أو لم تكن وَقْفته حينئذٍ وقفة شهيد يتوقَّع نوال الاكليل؟

أُغمي على الرجل مرتين ومرَّتين أُسقي مقوِّياً حتى استطاع سبيلًا الى فتح عينيه. ولما ان استأنس من نفسه قوة على الثبات قال لهم: اتركوني الان وحدي وانصرفوا الى مراكزكم فعزِّزوا موقفكم وتأهَّبوا للدفاع...

لم يُغمَض لروجير جفنٌ في تلك الليلة وكانت عيناهُ تُحدقان بالافق من الجهات الاربع. وكانت كل افكاره عند ذلك الباسل الثالث وهو يقول في نفسه! واعجبي أَهَل من تضحية ذات في سبيل المصلحة العمومية اكبر من تضحية ذلك الجندي المشدود الوثاق الى الشجرة؟

وقد حامَتْ مخيِّلته في التصورات فتخيَّل الرجلَ ساقطاً على الارض مضرَّجاً بدمه والثوار يفرغون فوق رأسه جامات غضبهم. فانتبه حينئذٍ مذعوراً وقد حسب نفسهُ سامعاً صوتاً غير صوت الطَّلق الناري ثمَّ استوقف فكر روجير جلبة غير اعتيادية من بعيد ولمح هامات سوداً في وسط الظلام تتحرَّك وتتقدَّم نحوهم وبينما هو لكذلك اذا بوجهٍ اصفر ينسلُّ كالافعى عند مطلع السُّلَّم وقد لمس القمر حينئذٍ اشفَّة الفضيَّة فانارت تلك الجهات فتأكَّد الملازم انهم اصبحوا في قبضة الثوار الذين احاطوا بهم احاطة السوار بالمعصم. فصرخ بصوتٍ متقطع: الى السلاح ايها الجنود اهجموا!..

واطلق من غدارته — وكانت بيده — عياراً نارياً ألقى بالصيني نحو المياه. وما هي الا برهات معدودة حتى كانت النيران من البنادق الفرنسوية تنصب كالمطر فوق الاعداء. فظنّ هولاء ان عدداً كبيراً من الجند مُعسكر فوق تلك الرابية وان لا قِبَل لهم على أخذها على غرّة بل الموت امامهم فيما لو لبثوا طويلاً فلجأوا الى الفرار..

٨

اشرقت شمس اليوم الرابع فكان لويس وحده الرجل السالم من جنود تلك الفرقة الكبيرة. كان روجير مخلوع الكتف وجندي ميتاً وثلاثة ساقطين بين الوحول واثنان يهذيان من شدة الحمّى

نحو الظهر اقبل المركب كعادته فاقلّ المرضى والموتى ثمّ اوعز القبطان الى الرجلين العائشين ان يمكثا ايضاً واشار على الراهبة بأن ترحل اذا احبّت فرفضت قائلة: مركزي هو هنا طالما يوجد جندي واحد جريح

كانت القلوب حينئذٍ تقطر دماً من الحزن والالم. امّا علَم الكولونيل ده مارسلّي فكان وحده لا يزال ينطوي وينشر في الفضاء فرحاً مسروراً. كصورة حيّة لوطنه المجيد

اربعة ايام اخرى مضت والثوار لم يبدُ لهم أثر فقد كانوا خسروا عدداً كبيراً من رجالهم حوالي المركز الافرنسي ولكنهم كانوا يجهلون حقيقة حاله

وكان الاب من الصبح الى المساء ومن اول الليل الى بزوغ الفجر يخفر المركز واقفاً. وكان يستند الى سلاحه لينام. وكان الملازم يرتجف من تأثير الحمّى فوق الرابية والممرّضة تعتني به كأمّ شفوق. وكانت نظراتها تخترق اعماق فؤاده وهو لم يعرف لذلك سبباً. وكان يشعر نحوها بحبّ شديد حبّ شكر واحترام. وكانت هي ايضاً كلّما اختلت بنفسها تسأل ذاتها عن سبب تعلّقها الزائد بذلك الملازم وهي لم تفتكر قط بحبّ رجل بعد ان كرّست نفسها لخدمة الله. وكثيراً ما كانت تصادف بإزائها الجنديّ لويس فما تقع ابصارهما بعض على بعض حتّى تغرورق عينا الجندي بالدموع. ولما سألته يوماً عن سبب ذلك قال لها: «لقد كان لي امرأة صالحة على جانب كبير من الجمال والتقوى وقد سببتُ لها موتها باثمٍ فظيع ارتكبتهُ نحو وطني وقد اغلقتُ اذنيَّ عن سماع صوتها العذب الذي كان يدعوني الى الارعواء. والآن فكلّما

نظرت اليك تنتصب امام عيني صورتها نفسها. فعيناك تشبهان عينيها وصوتك هو صوتها ذاته. . . »

٩

كان اليوم السابع واللازم روجير يشعر بشيء من الراحة. فأخذ يفكر بما يصنع فيما لو هجم الثوار مرة اخرى قبل فجر الغد. فسأل المرضة ان تأتيه بسيفه ومسدسه. فجربهما بين ايديه فقال: « حسن فمسدسي اقتل البعيدين وبسيفي اردّ غارات الهاجمين. فساعدي قوي ولو كان كتفي مخلوعاً. . . »

فلألأ القمر عند الافق وكانت النجوم تسطع في كبد السماء. وكان لويس الجندي في اسفل السلم يحدق بابصاره نحو الفضاء واللازم روجير مستندٌ الى كوعه الايمن وبجانبه الراهبة راكعة تسقيه دواءه. وعندئذٍ بدت طلائع الثوار. فاطلق لويس عياراً نارياً وتسلق السلم فصار اللازم الى جنبه. فلم يهلا العدو ريثما يتقدم بل رشقاه بنيرانهما مدة ساعتين من الزمان. فتظاهر الصفر بالهرب. لكنهم اعادوا الكرة نحو نصف الليل وكانوا هذه المرة يزحفون على صدورهم كالافاعي. ولما ان صاروا تحت الرابية جمعوا حشباً يابساً وتبناً واضرموا النار واحاطوا بالمركز من جهاته الاربعة. فما كان الا القليل حتى اندلع لسان اللهيب. فالتهمت النيران دعائم المحل فهوى في النهر. فاحاط الثوار بالرجلين شبه الكواسر ومنهم مَن دخل الى المراكز ليقضي على من فيه ولكن شدّ ما كان دهشهم عندما رأوه فارغاً. وكان لويس وروجير في تلك الساعة يقاتلان قتال الليوث. وقد تكدست جثث القتلى حواليهما حتى اصبحا كأنهما في وادٍ. وقد انقطع خطّ المواصلة بين الراهبة والجنديين. فركعت على الارض تتلو سبحتها وتصلي الى الله بصوت عالٍ لنصر اصحابها! ومجد وطنها! وهداية اعدائها! ثم للتكفير عن ذنب ابيها الآبق ولراحة نفس لوسي امها! . .

بلغ صوتها حينذاك اذني الجنديين فكاد الدم يقف في عروق لويس عند سماع كلمتي آبق ولوسي وقد اخذ سرّ الراهبة ينكشف له شيئاً فشيئاً. وفي تلك الساعة الهائلة افتكر بعلم الكولونيل فاضطرم قلبه شجاعة اعظم فهجم في وجه الاعداء. ففتح في صدرهم ثغراً كبيراً وشقّ الطريق نحو المركز واسرع نحو العلم. وكانت النيران قد اخذت تلتهم صاريَهُ وهو يهتزّ وهو يخفق في الفضاء كأنهُ يريد ان يهرب من

الحريق . فقطع لويس الحبل الذي كان يرفعهُ وشدَّهُ نحوه فلفَّهُ على ساعده وكرَّ نحو حومة الوغى

كان روجير في اثناء ذلك قد حوَّل العدو عن مكانه واسرع لمساعدة الراهبة واتى ابوه الى جانبه . فاحتاط بهم الثوَّار من جديد واشتبك القتال للمرَّة الثانية . . .

وما لبثت ان نفدت ذخيرة الرجلين ! ! ! . . .

خرَّ روجير على الحضيض صريعاً يتخبَّط بدمائه . فاسرعت الراهبة لتضميده . فاستطاع ان يفتح عينيه ولكنَّ جرحه كان خطراً وكان الدم يسيل بغزارة . فانحنى ابوه نحوه ليقبله قُبلة الوداع وكان رصاص العدو ينهمل كالمطر . فقال له روجير بصوت خافت : «رُحماك ابي قُل لي قبل ان اموت اسم عائلتي . ما هو الاسم الذي وعد ان يُعلمني به الكولونيل ، الاسم الذي سيُحفَر على صليب قبري . . هذه دقائقي الاخيرة . . »

وللحال سقط لويس فوق جسم ابنه وقد اخترقت رصاصة صدرهُ . . . فقال له والدم يسيل من جرحه : «اسمك ! اسمك روجير بَرْس . والدتك لوسي توفيت غمًّا لاني أبقتُ فارًّا من وطني وهذه الراهبة هي اختك» . فصرخ الولد : «رباهُ . . . يا لتعسي . . انا ابنُ لرجل آبق . . وسقط كلاهما بلا حراك»

فانفجرت الدموع من عيني الراهبة . وكانت تنظر من الاب الى الابن بحيرة وهي لا تدري ماذا تقول : برس ! لويس ! روجير ! لوسي ! لقد حزرت ! لقد فهمت ارباه هما هما بنفسهما . . ابي واخي ! . . أخذ الفجر يلوح وقد سُمع من بعد صوت النشيد الافرنسي فلجأ من بقي من الثوَّار الى الفرار . . .

نزل قائدٌ عن جواده يسنده اربعة من الرجال . فوجدوا رجلاً مخضَّباً بدمائه معصوباً رأسه مربوطاً كتفهُ . وكان هناك على الحضيض امرأة مضرَّجة بالدم ايضاً راكعة بين رجلين لا حراك فيهما وكان الدخان لا يزال ينبعث من بقايا حصن او مركز كواتراهو

كان مجيء الكولونيل ده مارسلّي قياماً بوعده ولكي ينشر على رؤوس الملا شهامة ومروءة وبسالة آل برس ويخلصهم من الخطر عند اشتداده ويكشف لهم السر الغامض الذي كان يدمي افئدتهم . وقد سبَّق غوره بما بذله من العناء والتدقيق مدة ثلاث سنين . ولكنَّ وصوله هناك ليكشفهُ كان متأخرًا

فاصطفَّ جنود الكولونيل حوالي المتازعَيْن اللذين كانا الى جانبي ابنة المصبَّة . ثم

اقترب الكولونيل فكشف عن رأسه امامها، وكان من لويس حينئذٍ ان صحا قليلاً. فما شاهد امامهُ قائدهُ حتّى اهتزّ طرباً ثم مدّ نحوه بابتسام وافتخار علماً كان ملفوفاً على يده. فقلّع الكولونيل من على صدرهِ وسامهُ العسكري وركع فعلّقهُ على صدر لويس ثم نهض وصرخ بجنوده: «ايها الجنود اعرضوا السلاح امام فقيد الوطن» ثم عدّد مناقب لويس وختم قائلاً: «الجندي لويس برس منذ اليوم كابورال الفرقة الاجنبية لانه كان في حرب السبعين قد خلّص من بين ايدي البروسيان قائداً وعلماً من جيش بورباكي...» فتح الملازم روجير عينيه عند سماع كلمات حرب السبعين وبورباكي. وقد تلألأ وجههُ سروراً فأجهد بنفسه حتى وصل نحو ابيه فعانقه وهو يقول: «حرب السبعين.. بورباكي.. فأبي اذاً لم يكن آبقاً!..» وسقط رأسهُ بثقله فلصقت شفتاه بالوسام العسكري الذي تعلق على صدر ابيه. ثم صرخ: «أماه لرمي!..» وأسلم كلاهما الروح... لم يستطع الكولونيل ولا جنوده ان يصدوا دموعهم عن جريها لدى ذلك المشهد المؤثر. على انّ القائد استظهر على عواطفهِ وكمّل مهمّتهُ قائلاً: «لويس برس سقط في ساحة الشرف. فنكسوا له سلاحكم ولفّوهُ بهذا العلَم المجيد الذي قذف بنفسه الى الموت مرّتين في سبيله، ومرّتين خلّصهُ من بين ايدي الاعداء». ثم اشار الى البطل الثاني قائلاً: «والقائد روجير بطل مجهول الكنية حتى اليوم. ولكنّكم ستدفنونه في حفرةٍ واحدةٍ مع ابيه وتنقشون على صليب تضمونه فوق الضريح: لويس وروجير برس بطلان افرنسيان»

اجتثّت النجدةُ في ذلك اليوم نفسه دابرَ الثوّار فطهّرت البقعة من آثارهم وأمنت الحدود الفرنسوية...

خيّم الغسقُ في تلك الارجاء وكنتَ ترى راهبةً راكعةً امام صليبٍ بالقرب من ضريحٍ جديد تتلو سبحتها وتستمطر الرحمة من السماء للراقدَين. بينما كان النسيم يحرّك رؤوس الاشجار والطيور تغرّد فوق الافنان. وهناك على بُعد بضع خطوات كان العلَم المثلّث الالوان يتموّج من جديد في الفضاء كواعظٍ ينبئ بلسان حالهِ اهل الارض بأن مَن بذل نفسهُ في سبيل الله والوطن حيّ في الخلد لا يموت!